الانساق البنائية للحدث في أدب أبي إسحاق الصابي (ت 384هـ)

أ.م.د. زينب علي عبيد الباحث: عبد الله سلام منصور

Structural patterns of the event in the literature of Abi Ishaq Al-Sabi (d 384 AH)

Researcher: Abdullah Salam Mansour Ass.Prof.Dr.Zainb Ali Obaid

ملخص :

لقد اولى النقاد والباحثون ولا سيما الشكلانيون الروس الحدث وانساقه اهتماماً كبيراً في دراساتهم وقد استعمل الاديب الصابي في كتابة رسائله النثرية واشعاره انساقاً بنائية مختلفة في بناء احداثه السردية للتعبير عن ما يكمن في خلجاته من مشاعر لإيصال صوراً اكثر وضوحاً وحيوية وتأثيراً في المتلقي .

الكلمات الدالة : النسق , الحدث , السرد

Abstract :

with the structural patterns of the event in the literature of Abu Ishaq Al-Sabi , as critics and researchers, especially the Russian Formalists, paid great attention to the event and its format in their studies. More clear, vibrant and impressive images for the recipient .

مقدمة: يشكل الحدث عنصراً أساسياً في عملية البناء السردي فهو يمثل مجموعة الوقائع الجزئية المرتبطة بعضها ببعض , والتي تقوم الشخصيات بإتمامها لتشكل غاية على وفق معايير وهياكل بنائية معينة تسمى بالنسق التي يعتمده الراوي في ارسال خطابه المروي الى المتلقي [i] , فهو عامل مهم من عوامل العمل القصصي الرئيسة , بعدّه ثاني مكون من مكونات المروي , اذ يؤلف مع الشخصية عنصراً فعالاً من العناصر السردية التي لا يمكن الاستغناء عنها , فهو سلسلة من الوقائع المتصلة تتسم بالوحدة الدالة وتتلاحق من بداية ووسط ونهاية , [ii] وقد اشار بول ريكول الى ان الحدث ((ليس مجرد حادثة أو شيء يقع , بل هو مكون سردي)) [iii] فلا يمكن أنْ نطلق على امر اعتيادي يحدث كل يوم أو بين مدة واخرى من دون أنْ يحدث أثراً معيناً أنَّه حدث , فهو يتشكل من التفاعل مع الشخصيات والزمان والمكان.

وبناءً على ما ذكر فالحدث مجموعة وقائع منتظمة ومتناثرة في الزمان [iv] تتصل بواقع الحياة المعيشية للقاص ولكن هذا لا يعني أنّ جميع الحوادث واقعية فعلاً , وإنما تعتمد على ثقافة الأديب أو المؤرخ المبدع , فهو كثيراً ما يتخيل الحوادث وهي بعيدة عن الواقع ويربطها بما يجري في كل يوم من حياته أو حياة الناس, وربما يستمد الأديب أو المؤرخ حوادثه من التاريخ الذي قرأه أو روي له فيتخذ من هذه الحوادث موقفاً معيناً ويجعل منها مادة لعمله القصصي , وأظهر ما يكون هذا في القصص التاريخية . [v] فهناك علاقة قائمة بين السرديات والتاريخ فالحدث من حيث هو يجب أن يتسم بالزمنية ; والزمن من حيث هو يجب أن يتصف بالتاريخية في أي شكل من أشكالها. وإذا كان الروائيون يرفضون بإصرار تاريخية الأحداث

وواقعية الشخصيات في أي عمل من الأعمال السردية ; فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا بأن إبداعاتهم الروائية مهما حاولت التملص من الزمن والتنكب عن سبيله فإنها واقعة تحت وطأتهِ . [vi] وفي المصطلح الارسطي فإن الحدث هو تحول من الحظ السيّئ الى الحظ السعيد أو العكس [vii] وقد يخدم بشكل كبير في نشوء الحبكة , فأمكن بذلك الفرق بين الحكاية و الحبكة من تعلق الحبكة بوجود عنصر (السببية) ؛ [viii] فالحكاية مجموعة من الحوادث مرتبة ترتيباً زمنياً ؛ والحبكة ايضاً سلسلة من الحوادث يقع التأكيد فيها على الاسباب النتائج [ix] فالحوادث تتبع من الشخصيات وحين تقع فإنَّها تغير الشخصية , فالناس والاحداث يرتبطون ارتباطاً وثيقاً .[x]

ومتعة السرد نجدها في ترتيب الاحداث لذلك مهمة القاص في العمل السردي أنْ يجد نظاماً متسقاً في قصته ؛ والحبكة الفنية ما هي إلا عملية اختيار تقديم وتأخير للحوادث فالقاص يختار الحوادث الصالحة ويضع هذه قبل تلك , وتلك قبل هذه بحيث يجيء السياق والتتابع موفياً بالغرض المقصود ؛ فالقصة إذا خلت من الحبكة لم تعد قصة فنية . [xi]

وتتجلى الانساق البنائية للحدث السردي بشكل واضح في أدب أبي اسحاق الصابي شعراً ونثراً لا سيما المختارات من رسائله النثرية وبالإمكان دراسته من جوانب متعددة فالحدث في السرد انساقاً مختلفة , فالكتاب يتبعون طرائق مختلفة في تقديم الاحداث السردية , فهي تترابط فيما بينها بوساطة علاقات زمنية . وكل منها يمكن ان يأتي سابقاً او لاحقاً او متزامناً مع غيره من الاحداث [xii] وقد اولى النقاد والباحثون في دراساتهم اهتماما كبيراً بالحدث وانساقه لا سيما الشكلانيون **الروس , ومن أشهر تلك الانساق :**

١- نسق التسلسل (التتابع)
٢- نسق التضمين .
٣- نسق التداخل .
٤- نسق التكرار (الدائري)
٥- نسق التناوب .
٦- نسق البديل الدلالي . [xiii]

وقد تفنن الصابي في كتابة رسائله النثرية واشعاره مستعملاً انساقاً مختلفة لسرد احداثٍ ماضية وحاضرة في حياته معتمداً على علميته المتراكمة ؛ ولعلَّ من اهم الانساق التي وردت في ادب الصابي :

١- نسق التسلسل (التتابع)

يعد هذا النسق من ابسط الانساق واقدمها , واكثرها , شيوعاً , تتعاقب مكوناته السردية جزءاً بعد آخر دونما ارتداد او التواء [xiv]. يرتبط بالقصة التي تتمثل في قول يتضمن مجموعة من الاحداث المتتابعة التي تكون حدثاً موحداً فإذا انعدم التتابع تلاشت القصة وتحولت الى لوحة وصفية لا يربط بين عناصرها سوى التجاور المكاني [xv] ولربما تتكون القصة من سلسلة من الجمل يرتبط بعضها ببعض يطلق عليها المتوالية والاغلب ان تتكون القصة من متوالية واحدة وقد تشمل على متواليات كثيرة او قد تكون جزءاً من متوالية واحدة لا غير ؛ فالعلاقة بين الجمل هي اما علاقة زمنية ناشئة من تتابع الاحداث ؛ او علاقة منطقية اساسها السبب والنتيجة ؛ او علاقة مكانية قائمة على وجود تشابه ما بين جملتين في اطار فكرة التوازي [xvi], وهذا النظام كان وما زال مهيمناً في الفن القصصي ويعود ذلك الى تأثير الخبر التاريخي في الفن القصصي ؛ وابرز ما يميز هذه النصوص المتتابعة , هو خضوعها لمنطق السببية حيث يكون السابق سبباً للاحق ويكون اللاحق نتيجة لما سبقه وقد ادت

الخصائص اعلاه الى ظهور تماسك بين مكونات المتن . [xvii] وعند دراسة ادب الصابي وجد أنَّ النسق التتابعي ورد في واحد من قصائده الغزلية الدالية التي عرفت بالتقاء الاديان الخمسة قال فيها :

كـل الورى مـن مـسـلم ومـعـاهد للديـن مـنـه فـيـك أعدل شـاهد

فـإذا رآك المـسلمـون تـيـقـنـــوا حـور الجـنان لدى النعيم الخالد

وإذا رأى مـنـك النـصـارى ظـبـــيـة تـعـطـو بـبـدر فـوق غـصـن مـائد

أثـنـوا عـلى تـثـليثهم واستشهدوا بـك إذ جـمـعت ثـلاثـة فـي واحـد

وإذا اليـهـود رأوا جبينك لامعاً قـالوا لدافـع دينـهـم والجـاحـد

هـذا سـنـا الرحـمـن حـين أبـانـه لكـلـيـمـه مـوسـى النـبـي العـابـد

ويـرى المـجـوس ضـيـاء وجـهك فوقه مـسـود فـرع كـالظـلام الراكـد

فـتـقـوم بـيـن ظـلام ذاك ونور ذا حـــجـــج أعـدّوهـا لكـل مـعـانـد

أصـبـت شـمـسـهـمُ فـكـم لك فـيـهـم مـن راكـع عـنـد الظـلام وسـاجـد

والصـــابـــئون يـرون أنـك فـردة فـي الحـسـن إقـراراً لفـرد مـاجـد

كـالزهـرة الزهـراء أنـت لديـهـم مـسـعـودة بـالمـشـتـري وعـطـارد

فـعـلى يـديـك جـمـيـعـهـم مـسـتـبـصـر في الدين من غاوي السبيل وراشد

أصـلحـتـهـم وقـتـلتـنـي فـتـركـتـنـي مـن بـيـنـهـم أسـعـى بـديـن فـاسـد [xviii]

نجد ان الكاتب ينطلق في رسم مشاهد متعددة , فهو ينقل لنا الحدث تلو الاخر نقلا تتابعياً صور عبره المرتكزات الايمانية لمعتقدات الاديان الخمسة مبتعداً بعض الشيء عن العاطفة الجياشة ؛ انطلق من نظرة شمولية اشرك فيها جميع الاديان واستطاع منها الربط بين وصف الصورة الجمالية والتقاء هذه الاديان في الوصف , وبهذا اظهر الكاتب سعة معرفته وثقافته الموسوعية العظيمة التي تجسدت من وصفه السردي في ذكر الاديان واشتراكها في وصف الموصوف يتضح من ذلك الهدف الأهم الذي أراد الصابي إيصاله هو إعطاء نبذة عن هذه الاديان السماوية التي كانت تسود العصر والتقائها في الافكار والغايات فالغاية اكبر واعظم من ان يتغزل فالغزل اتخذه اداة للغرض الاهم وهو ايصال صورة لأهمية الاديان وارتباطها السماوي واثرها في التعايش السلمي للمجتمع ؛ افتتح ذلك بالعقيدة الاسلامية والوعد الالهي باليوم الاخر عبر تصويره للجنان وهو غاية ما يسعى اليه المسلمون , أما النصارى فإنهم يرون الجمال في غزال يرفع قامتيه ويمد رقبته لينال من غصن مائد , وقد تناول من اليهود حوار نبي الله موسى عليه السلام مع ربه , ثم يتسلسل بالسرد بذكر المجوس , بعدها يختتم سرده بذكر النصارى ومنهم كاتب النص فهم يرون انفراد الموصوف في الحسن [xix]. وبهذا السرد التتابعي قدم الصابي صورة فنية متكاملة عن المساحة الدينية للأديان التي كانت سائدة في المجتمع بحجة واضحة اذ لا يستطيع أحد أنْ ينكر هذه

الاديان بعد رؤية حسن الموصوف فلا خيار سوى الايمان بالخالق ووجوده ومهما اختلفت الرؤى والافكار فالملتقى واحد وهو ملتقى الكمال الالهي بهذا جمع الصابي جميع العيون في نظرة واحدة بطريقة لإيصال رسالة ضمنية إلى السلطة بعراقة الاديان الموجودة في ذلك الزمان وأصولها السماوية وتأريخ هذه البلدان والحرية التي كانت تسود المجتمع لأنَّ السلطة في العصر العباسي أخذت تبث ثقافات مختلفة عن ثقافة المجتمع الاسلامي .

كذلك ورد نسق التتابع في نثر أبي إسحاق في نسخة كتاب أنشأه عند فتح بغداد وانهزام المماليك عنها في جمادي الأولى سنة ثلاثمائة واربعة وستون بشرح الحال ووصف الخلاف الى الامير ركن الدولة قال فيه :

((أما بعد فإنَّ لله قضايا نافذة , وأقدار ماضية , فيهن النعم السوابغ والنقم الدوامغ , فأمّا النعم فيؤتيها عباده اجمعين بادية , ثم يجتذبها الشاكرين منهم عائدة , واما النقم فلا تقع سلفاً وابتداءً , لكن قصاصاً وجزاءً , بعد إمهال وإنظار وتحذير وإنذار , فإذا حلت بالقوم الظالمين فقد طوي في إنائها صنع لآخرين معتبرين , فلا يخلو اهل الطاعة من الثبات والاستبصار وأهل المعصية من الارتداع والازدجار . ومن هناك شهدت العقول الراجحة ودلت المناهج الواضحة , على أنَّ أولى ما فغر به الناطق فمه وافتتح به كلمه , حمد الله الذي هو الجالب لرحمته ورضاه , , والذائد لسخطه وسطاه , والذريعة الموصلة الى الخيرات والذخيرة النافعة في الملمات والموئل المانع من لجأ اليه , والم عقل العاصم من عول عليه ...)) [xx]

يقدم الكاتب هنا أحداثا ضمن الاطار التسلسلي المنطقي عبر سرده حقائق تكوينية حدثت وما زالت مستمرة في الحدوث ؛ لإيصال فكرة واضحة وموسعة في سرد احداثٍ تتابعية تجعل من القارئ متشوقاً لها . واستعماله الأساليب البلاغية في تجسيد أحداثه السردية وتشويق المتلقي لما يجري من أحداث خاضعاً إياها لمنطق السببية مما يعطي للنص حيوية أكثر , وعلى الرغم من بساطة الاحداث إلا أنَّ الكاتب كان موفقا في تجسيدها وجعل المتلقي متلهفاً لإشراكه في الأحداث السردية فالخطاب ليس خاصاً بل هو خطاب عام روحاني من اجل استمالة أفكار المتلقي . وهذا الاسلوب كثيراً ما نجده في خطب نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام) في استهلال الخطب اذ تبدأ بالدعاء وتذكير المؤمنين بأمور دينهم من اجل تهيئة اذهانهم , وهذه ما هي إلا دلالة واضحة على تأثر الكاتب بتعاليم الدين الاسلامي شأنه شأن اغلب الكتاب في عصره لما للدين الاسلامي من اثار واضحة في ثقافة الفرد , وتكشف لنا علاقة الصابي بالشريف الرضي عن مدى تأثره بالأمام علي عليه السلام حيث ان الشريف الرضي عند تأليفه لكتاب (نهج البلاغة) الذي جمع فيه خطب الإمام علي عليه السلام كان كثيراً ما يستشيره في منهجه لأنَّ الصابي من الكتاب الذين اطلعوا على ما قاله الامام عليه السلام وتأثروا بنهجه حتى أصبح أسلوبه واضحاً في رسائله النثرية شأنه شأن كثير من الكتاب الذين يميلون إلى الأخذ والكلام عن صفات الله عز وجل وخاصة عند توجيه خطابهم للمجتمع وهذه دلالة على أنَّ الروح الاسلامية ما زالت مسيطرة ومهيمنه وأنَّ الدين الاسلامي لا يزال سحره الأول مؤثراً في ذلك العصر .

٢- نسق التضمين :

يعد نسق التضمين من الأنساق التي استعملت قديماً في التراث العربي القديم ويتجلى ذلك في قصص ألف ليلة وليلة , وكليلة ودمنة التي تقوم على أساس نشوء قصص متعددة في إطار قصة واحدة للتأثير في المتلقي وإبراز سعة ثقافة الاديب , (فهو محاولة لتضخيم حجم العمل الفني , وعلى مستوى آخر على أنَّه بحث عن التنوع .) [xxi] ويستعمل يلمسليف (Hjelmslev) مصطلح لغة التضمين في معنى مجرد واسع هو تضمين النص ألفاظاً وعبارات مستعارة من لغة أخرى ؛ ولكن التضمين عنده ليس الكلمات المستعارة بل فعل الاستعارة نفسه ؛ فاستعمل ستاندال كلمات ايطالية للتعبير عن فكرته هو الدال , أما

المدلول عنده فهو صورة ايطاليا المرتبطة بالحرية .[xxii] وقد ورد نسق التضمين في أدب الصابي اذ نجد الكاتب يضمن أبياته اساليب استعارية ووقائع تاريخية قال فيها :

وقد علم السلطان أني لسانه وكاتبه الكافي السديد الموفقُ

أوازره فـيـمـا عـرى وأمـدّهُ برأيٍ يريه الشمس والليل أغسقُ

يـجدد بـي نـهج الهدى وهو دارسٌ ويفتح بي باب النهى وهو مغلقُ

فيـمنـاي يـمنـاه ولفظـي لفظهُ وعيني له عينٌ بها الدهر يرمقُ

ولي فـقرٌ تـضـحي الملوك فقيرة إليـهـا لدى أحداثها حين تطرقُ

أردّ بـهـا رأس الجـمـوح فـينثني وأجـعلـهـا سـوط الحـرون فـيعنقُ

فـإن حـاولت لطفـاً فـمـاء مـروق وإن حـاولت عـنـفـاً فـنـار تألّق

يـسـلم لي قـسٌّ وسـحـبـان وائل ويـرضـى جـريـر مذهبي والفرزدق

فـيـغضـي لنثري خاطب وهو مصقع ويـعـنـو لـنـظـمـي شاعرٌ وهو مفلق

مـعـان لو الأعشى رآهن لم يقل وبات على النار الندى والمُحَلّق[xxiii]

نجد إنَّ الشاعر افتتح قصيدته مفتخراً بنفسه متخذاً من السرد وسيلة للتعبير عن احداثه السردية مستهلاً ذلك بذكر منزلته ومكانته عند السلطان متحدثاً عن الشؤون الخاصة بالدولة ونلحظ من ذكر منزلته أنَّ تأثيره كان قوياً اذ استباح لنفسه أنْ يفتخر بنفسه بذكر مكانته الرفيعة عندهم ؛ ثم ينتقل الى تضمين سرده اسلوب من الاساليب البلاغية وهو أسلوب الاستعارة في قوله : (برأيٍ يريه الشمس والليلُ اغسَقُ) ثم يسترسل في السرد وصولاً إلى تضمين سرده شخصيات تاريخية منها ذكر قبائل قس وسحبان وائل وذكر شخصية جرير والفرزدق وقد أورد الكاتب هذه القبائل والشخصيات لتعضيد سرده وأفكاره واظهارها بالمعنى المناسب للمتلقي معطياً بذلك الاحداث السردية صورة اكثر تألقاً ووضوحاً . اما ذكره لهذه الشخصيات على وجه الخصوص قد يكون سبباً في تقارب الرؤى بينهم , واتخذ الكاتب من السرد وسيلة للبوح والتعبير عن ذلك , فضلاً عن ذلك نجده ضمن نصه تضميناً مشروطاً إلى أنَّ التقارب بينه وبين السلطة مشروطاً بالاستجابة لأمرهم وأي خروج عنها ما هو الا هلاك له بقوله : فإن حاولت لطفاً فماء مروق وان حاولت لطفاً فنار تألق .

كذلك نجد نسق التضمين في أدب أبي اسحاق في رسائله النثرية التي كتبها عن معز الدولة الحسين أحمد بن بويه عند ظفره بروزبهان بن وناخر شيذ العاصي عليه بالأهواز قال فيها :

((أما بعد فإنَّ احقَّ النعم بأن يلقى ضيفها العصا , وتستقر به النوى , ويستوطن عاكفاً , ويطمئن محالفاً , نعمة قُرنت بالشكر , وجُنّبت الكفر , وتُلقيت بالارتباط والاستدامة وتُنُولت بالتأنيس والاستمالة , وصادفت كفوءاً مطيقاً لحملها , ووالياً حقيقياً بمثلها , وناهضاً مستقلاً بأعبائها , وناشراً مثنياً بآلائها , فثبت الله عنده اطنابها ومكَّن لديه اسبابها , واضفى عليه

ملابسها , وساق إليه نفائسها , وعقد له بها لواء الظفر اين يممَّ [xxiv] ومد عليه رواق النصر حيث خيَّم . والله سبحانه يقول : ((وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ))[xxv] وإنَّ اخلقها بأن يأبى زوْرها [xxvi] المقام , وينبو عن الدوام , وينعب غرابه بالزِّيال [xxvii] , وتحدي ركائبه بالانتقال , نعمة وقعت عند مسيء لجوارها , جاهل بمقدارها , عَيي بحراستها , مليء بإضاعتها , ...)) [xxviii]

نجد الكاتب أنَّه اعتاد على افتتاح سرده بالمقدمات الممزوجة بأساليب الدعاء التي يستميل فيها ذهن القارئ ويؤمله في النظر إلى المستقبل عبر حلقة وصل تصل أحداث الماضي بالمستقبل متخذاً الأفعال المضارعة والماضية وسيلة في ربط المستقبل بالماضي ثم يستمر في سرد الأحداث مضمن سرده قوله تعالى : **((ومَن يقترف حسنةً نَزِد له فيها حُسناً إنَّ الله غفور شكور))**[xxix] مما يعطي للسرد مقبولية اكثر عند القارئ وأكثر مصداقية وإبرازاً لسعة ثقافة الكاتب . وورد نسق التضمين في أدب أبي اسحاق في أبيات امتدح فيها المهلبي وهو بدجلة البصرة متوجهاً إلى عمان قال فيها :

لقد كنفت منك السعود موفّقاً مصادره محمودةٌ والموارد

كأني بالبحر الذي خيف هوله وقد خاف حتى ماؤه فيه جامد

يرى منك بحراً زاخراً فوق متنه فيصبح جاري موجه وهو راكد

كأنّ عصا موسى بكفك فوقه وقد خرّ إعظاماً لها وهو ساجد

ستعنو لما تبغي ظهور صفائه وتبلغ ما تهوى وجدك صاعد

فلا تخش من صرف النوائب نبوة فنصرك محتومٌ عليه شواهد

إذا عادة الله التي أنت عارف تذكرتها هانت عليك الشدائد [xxx]

نجد أنَّ الكاتب في هذه الابيات افتتح سرده مخاطباً المهلبي مادحاً له في قوله كنفت منك السعود أي صانتك وضمتك منك النجوم موظفاً الاساليب البلاغية كاستعماله التشبيه اذ شبه له بأنه يرى البحر أهواله خائفة وماؤه جامد اذ يرى من ممدوحه بحراً زاخراً فوق متنه ثم يشبه ذلك بأن عص موسى في كفه وقد خر البحر لها إعظاماً وهو ساجد فنلحظ هنا أنَّ الكاتب ضمّن سرده قصة أخرى من قصص القرآن الكريم وهي قصة عصا موسى (عليه السلام) كما في قوله تعالى : **((قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيهَا وأَهُشُّ بهَا على غَنمِي، ولِيَ فِيها مَآرِبَ أُخرَى))** [xxxi] فقد كان يستعملها لعدة أغراض منها الاتكاء عليها ورعي الاغنام التي تعد واحدة من معجزاته عليه السلام , فقد وضرب بها الحجر فانفجر منه الماء , كما ضرب البحر فانفلق واستطاع بنو اسرائيل عبور البحر . يريد الكاتب بهذا التضمين إيصال صورة للمتلقي أكثر وضوحاً وواقعية للمتلقي عن الممدوح تتسم بالإيجاز واعطاء صورة متعددة التعبير فيعطي من خلالها حكم الاول الممدوح فضلاً عن ان القران الكريم رافداً يستلهم منه الشعراء كل ما يجعل من اشعارهم اكثر حجة فيعطي بذلك دلالة حجاجية تفتح افاقاً بعيدة من التخييل ومناحي واسعة من براعة التصوير [xxxii].

٣- نسق التداخل .

تُبنى صورة الحدث السردي في هذا النسق من تداخل مجموعة من الأحداث التي يقوم الكاتب بتقديمها للمتلقي الذي يقوم بدوره في تنظيم هذه الاحداث , فالحدث السابق لا يكون سبباً للاحق , إنَّما يجاوره , وقد تظهر النتائج قبل الأسباب [xxxiii] , فالمروي يضم مستويين المتن الحكائي , والمبنى الحكائي الاول يعرض بطريقة عملية حسب النظام الطبيعي (الوقتي , والسببي) والثاني الذي يحيل على النظام التي يتخذه ظهور الأحداث في سياق البنية السردية بما تكون عليه من ارتداد واستباق وحذف فهو متغير [xxxiv] .

وبناءً على ما استعرضناه فإنَّ تنظيم الأحداث في نسق التداخل هو من مهام المتلقي التي يستطيع منها إبراز الجانب الإبداعي فهو غير خاضع للترتيب الزمني ونجد هذا جليا في أدب أبي إسحاق الصابي كما في أبياته الشعرية التي قالها عندما توفي المهلبي واعتقل في جملة عماله :

يـا أيـهـا الرؤساء دعوة خـادم أوفـت رسـائله عـلى التـعديد

أيـجـوز فـي حكـم المـروءة عندكم حـبـسـي وطـول تـهـددي ووعيدي

قُلِّدتُ ديـوان الرسـائل فـانـظروا أعـدلتُ فـي لفظي عن التسديد

أعـلـيَّ رفـع حـسـام مـا أنـشـأتـه فـأقـيـم فـيـه أدلتـي وشـهـودي

أنـسيـتم كـتـبـا شـحـنـت فـصولها بـفـصـول در عـنـدكـم مـنـضود

ورسـائلاً نـفـذت إلى أطـرافكم عبد الحميد بـهـن غير حـمـيد

يـهـتـز سـامـعـهـن مـن طـرب كـمـا هـز النـديـم سـمـاع ضـرب العود

أنـا بـيـن إخـوان لنا قد أوثقوا بـسـلاسـل وجـوامـع وقـيـود

ومـوكـلـيـن بـنـا نـذل لعزهم فـكـأنـنـا لهم عبيد عبيد

والله ما سمع الانام ولا رأوا نـقـدا تـوكـل قـبـلهم بـأسـود

مـن كـل حـر مـاجـد صـنـديـد فـي كـل وغـد عـاجـز رعـديـد

قـصـرت خـطـاه خـلاخـل مـن قـيده فـتـراه فـيـهـا كـالفـتـاة الرود

يـمـشـي الهـوينـا ذلة لا عزة مـشـي النـزيـف الخائف المزءود

فـتـفـضـلوا وتـعـطفوا وهبوا لنا عـفـوا قـديـم حـفـائظ وحـقـود

وتـعـلـمـوا أن الولايـة عـنـدكـم عـاريّـة ليـسـت بـذات خـلـود [xxxv]

الكاتب هنا يسرد لنا أحداثاً غير منتظمة زمنياً فهو غير ملزم بتقديم الأحداث كما جرت على الرغم من أنَّه عليم بكل مجريات الأحداث , يفتتح سرده مخاطباً الرؤساء ثم يستفهم عن أسباب حبسه وعدالة لفظه حين تقلد ديوان الرسائل ثم يسترسل في الاستفهام عن الأسباب التي أدت إلى استبعاده وسجنه بعيداً عن التقيد بالتسلسل الزمني للأحداث اذ نجد التداخل واضحاً من الاختلاف بين زمن المتن الحكائي وزمن المبنى ويعود السبب الى هذا التداخل نتيجة الضغط النفسي الذي كان يعانيه وجعل من أبياته تبدوا غير مترابطة إلا أنَّها تملك من التأثير ما يجعلها تتوالى في مقطوعة سردية تبدأ بما انتهت إليه من إشارات إلى الظلم والمعاناة وعدم المساواة , فهو يسرد ويستفهم عن احداث حدثت في زمن مضى وهذا الاسترجاع الزمني يعطي المجال للمتلقي بأنْ يعيد ترتيب الأحداث السردية . نلحظ هنا أنَّ الكاتب استعمل أسلوب الاستفهام في أكثر من موضع وهي دلالة واضحة على الضعف والظلم التي لحق به من جراء السلطة فيبغي استعطافهم بكل الطرائق ليبين مدى صلابة قلوبهم ثم يعود ليختم ابياته بأن يذكرهم بضعف ولايتهم بوصفها بالعارية وأنَّها ليست بالخالدة , بهذا يجعل من المتلقي يستنتج كأنما الابيات التي سبقت ليست لاستعطافهم بل هي نصائح لهم , بهذا استطاع الصابي استمالة قلوب المجتمع وكسب ودهم وعرض المظلومية التي لحقت به وبيان ضعف السلطة وعدم خلودها فهم ليسوا بأصحاب السلطة الحقيقيين . فالقصيدة كأنها خطبة يستنهض بها همم الناس ليبين لهم ما يجري من ظلم وعدم مساواة فضلاً عن تذكيرهم بضعف الظالم وقلة حيلته وبقائه في السلطة . كذلك نجد هذا النوع من النسق في ادب الصابي في وصف المتصيد والصيد يقول فيه :

((ثم عدنا عن مطارح الخيام , إلى مسارح الآرام , نستقري ملاعبها , ونؤم مجامعها , حتى افضينا إلى أسراب لاهية بأطلائها , رائعة في اكلائها , ومعنا فهود اخطف من البروق , والقف من الليوث , وأمكر من الثعالب وادب من العقارب , وأنزل من الجنادب , خمص الخصور قب البطون , رقش المتون , حمر الآماق , خزر الاحداق , هرت الأشداق , عراض الجباه , غلب الرقاب , كاشرة عن انياب كالحراب . [xxxvi]

نلحظ أنَّ الكاتب في افتتاح السرد لم يأتِ بالترتيب الزمني للأحداث اذ بدأ سرده بالزمن الماضي زمن الاستلقاء والراحة منتقلاً الى زمن آخر وهو الخروج مبكراً إلى مسارح الآرام للاطلاع على ملاعبها ثم يفضي إلى أسراب لاهية ويعود من جديد يصف من رافقه في رحلته التي شبهها بالفهد وبأوصاف مختلفة فيها الكثير من المفارقات التي يسعى منها إيصال صورة متكاملة لمن رافقه ووصف فطنته , وكأنه عاشها ويشبهها برحلة الصيد اذ ينتقل من مطارح الخيام حياة الرفاهية والملوكية ومجالسة الحكام كما يصورها بعض النقاد , وابتعاده عن المجتمع إلى مسارح الآرام إلى النكبة التي حلت به بعد تولي عضد الدولة فهي انتقاله من الحياة السياسية والملوكية إلى عالم آخر وهنا نجد الصابي يطيل الوقوف في وصف من يرافقه في هذه الرحلة مستعملاً الأساليب البلاغية لإيصال صور متعددة الوصف كأنه يصف حال المجتمع في ذلك العصر وما حل به من ويلات جعلت من الأديب الصابي يصفه بهذا الوصف من القوة والارادة نتيجة تمادي الحكام وخلق روح الطبقية في المجتمع , تاركاً المجال للمتلقي لكي يعيد ترتيب الاحداث السردية ؛ فالنص فيه الكثير من الاشارات السياسية التي كانت تطغي على حياة الصابي اذ عاش الحياة السياسية بكل تفاصيلها ؛ فصلاً عن ذلك فإنَّ ما دفع الصابي إلى قوله هذا هو ضعف بيت الخلافة العباسية في هذه المدة وفطنة المجتمع في المطالبة بحقوقه والقضاء على الطبقية التي بدأت تنخر المجتمع في ذلك العصر .

٤- نسق التكرار (الدائري)

يشكل هذا النسق نوعاً من الأنواع السردية قليلة الاستخدام إذا ما قورن بالأنساق القديمة التي سبقته , يبدأ من نقطة معينة وينتهي بنفسها فهو يعمل على الخروج عن الترتيب الزمني . وأنَّ الخروج عن النمط التقليدي في ترتيب الأحداث له دلالة فنية يقصدها الكاتب تتمثل في التركيز على الحدث وجعله بؤرة الاهتمام فاللعب في الأزمنة هو عمل جمالي لا يؤثر على ماهية

الاحداث من حيث الترتيب فهو يكشف عن دور الكاتب في التلاعب في سرده للأحداث على وفق نظرته الخاصة [xxxvii] . وقد اثر نسق التكرار في أدب الصابي شعراً ونثراً ومثال ذلك ما ورد في مقطوعاته الغزلية قال فيها :

جرت الدموع دماً وكأسي في يدي شوقاً الى من لج في هجراني

فتخالف الفعلان شارب قهـــــوةٍ يبكي دماً وتشاكل اللونـــــانِ

فكأن ما في الجفن من كأسي جرى وكأن ما في الكأس من اجفاني

لقد أعطى الكاتب صورة مجسمة عن حجم المعاناة النفسية التي كان يعانيها وكأنه يعطي صوراً فوتوغرافية عن أحداثه السردية مفتتحاً أبياته بالشكوى والألم لما لحقت به من نكبة كبرى , وكأنهُ يندب تلك النفس والأيام التي ألحت على هجرانه خاصة بعد وفاة ولديه ثم يستمر في المعاناة التي يصورها بأساليب بلاغية ليجعل من أحداثه أكثر واقعية اذ يشبه دموعه بما في الكأس فنلحظ أنَّه ما زال مركزاً على الحدث الرئيس الذي طغى على النص فالنص يدور في حلقة دائرية مفتوحة تنتهي حيث تبدأ ليؤكد لنا استمرار سير الحدث السردي وهذه دلالة على استمرار الالم التي الم به والنكبة التي حلت به . نستنتج من ذلك أنَّ الصابي استطاع أنْ يخرج من غرض الغزل غرضاً اخر وهو الشكوى من النكبة التي لحقت به واللألم الذي سكن في ذلك الفؤاد والأيام التي ألحت على فراقه فعُدَّت النقلة الأهم في حياة الصابي , وهذا ليس بالغريب على الأديب الصابي الذي عرف بكياسته وحكمته التي استطاع بها أنْ يصل الى مراكز حساسة في السلطة في ذلك العصر . وقد ورد النسق الدائري في أدب الصابي في واحد من مقطوعاته السردية عن بختيار الى سبكتكين الغزني قال فيها :

((ليت شعري بأي قدم توافقنا ورايانا خافقة على رأسك ومماليكنا عن يمينك وشمالك , وخيلنا موسومة بأسمائنا تحتك , وثيابنا المنسوجة في طرزنا على جسدك , وسلاحنا المشحوذ لأعدائنا في يدك .)) [xxxviii]

تحدث الكاتب في افتتاح نصه عن مدى تعجب عز الدولة بختيار بتوافقه مع مؤسس الدولة الغزنوية سبكتكين الغزني وتسليمه مماليكه ويستمر تعجبه حتى يختم سرده فنلحظ أنَّ الكاتب في سرده رسم شكلاً دائرياً تدور حوله الأحداث اتسم بالتكرار ويدور في حلقة واحدة يبدأ بالتعجب وينتهي في النقطة ذاتها , تخلل هذا التعجب مدحاً من قبل عز الدولة إلى مؤسس الدولة الغزنوية مدحاً فيه دلالة على ضعف بختيار لكسب وده وبقاء ملكه حتى انه جعل سلاحه بيده لإيصال رسالة بانضمامه تحت رايته ومملكته ذلك أنَّ سبكتكين الغزني اخذ يتوسع في مملكته حتى شملت الكثير من ممالك الشرق والغرب . فالنص تتخلله الكثير من الإشارات السياسية , وكثرة التعجب الممتزج بالمدح وتكرار حرف العطف والتركيز على الحدث السردي في النص وحصره في دائرة الاهتمام دلالة واضحة على اهمية الحدث وتعظيمه .

نسق التناوب .

هذا النوع من النسق قائم على سرد أكثر من حكاية في نص واحد اذ يتناوب السرد بين الحكاية الأولى والثانية .

ونجد هذا النوع من النسق في أدب أبي اسحق في رسالة وصف فيها المتصيد والصيد قال فيها :

((وخيلنا كالأمواج المتدفقة والأطواد الموثقة متشوقة عاطية مستبقة جَارِيَة تشتاق الصَّيْد وَهِي لَا تطعمه وتحن إِلَيْهِ كَأَنَّهُ قضيم تقضمه وعَلى ايدينا جوارح موللة المخالب والمناسر مدربة النصال والخناجر طامحة الالحاظ والمناظر بعيدَة المرامي والمطارح زكية الْقُلُوب والنفوس قَلِيلَة القطوب والعبوس سَابِقَة الاذناب كَرِيمَة الانساب صلبة الاعواد قَوِيَّة الاوصال تزيد إذا طمعت شَرها وقرما وتتضاعف إذا شبعت كَلْبا ونهما فَبينا نَحن سائرون وَفِي الطّلب ممعنون إِذْ وردنا مَاء زرقا جمامه طامية أرجاؤه يبوح بأسراره صفاؤه ويلوح فِي قراره حصباؤه وأفانين الطير بِهِ محدقة وغرائبه عَلَيْهِ وَاقعَة مُتَغَايِرَة الالوان وَالصِّفَات مُخْتَلفَة اللُّغَات والاصوات فَمن صَرِيح خلص وتهذب نَوعه وَمن مشوب تهجن عرقه فَلَمَّا أوفينا عَلَيْهَا ارسلنا الْجَوَارِح إِلَيْهَا كَأَنَّهَا رسل المنايا أَو سِهَام القضايا فَلم نسْمع إِلَّا مسميا وَلم نر إِلَّا مذكيا وعدنا لشأننا دفعات وأطلقناها مَرَّات .)) [xxxix]

نلحظ أنَّ الكاتب يبدو عليماً في سرد احداثه مفتتحاً سرده بوصف الخيل متحدثاً عن قبيلته مفتخراً عنها بأستعمال (نا) المتكلمين معبراً بها عن الجماعة بقوله (وخيلنا) ثم يسترسل في السرد واصفاً خيلة مستعيناً بالأساليب البلاغية كاستعماله التشبيه في قوله (كالأمواج المتدفقة ..) ثم يتداخل السرد في حكي حكاية أخرى قبل أنْ ينتهي الكاتب من وصف خيله في رحلة الصيد , وأثناء السير ورد زرقاً جمامه أي ماءً

شديد الصفاء كصفاء السماء يملأ المكان أسراره واضحة من شدة بياضه الطير ناظرة حوله , وقد جاء ذلك الوصف في قول زهير بن أبي سلمى قائلاً :

فلما وردن الماء زرقاً جمامُهُ وضعن عصي الحاضر المُتَخيّمِ [xl]

أي لما حللنه الماء الصافي وضعن عصيهم وهي كناية عن الاستقرار بهذا المكان بعد سفرٍ . ثم يستمر الكاتب في سرد الحكاية التي تناوبت بعد الحكاية التي وصف فيها خيلهم واصفاً ذلك بأعذب الكلمات وأبلغها متناوباً في نقل ذهن المتلقي من وصف الخيل إلى وصف زرقة الماء محقق بذلك نسقاً متناوب الاحداث .

الخاتمة :

وبناءً على ما ذكر من أنساق في أدب أبي إسحاق الصابي نجد أنَّ الكاتب تعكز على أنواع متعددة من الأنساق البنائية ليعبر منها عن ما يكمن فيه من مشاعر وعواطف مكنته من إيصال صورٍ أكثر وضوحاً وحيوية للمتلقي , ونجد أنَّ انساق الحدث في أدب الصابي كان لها حضورٌ بارزٌ الا أنَّه كان متبايناً اذ إنَّ نسق التتابع والتضمين والتداخل والنسق الدائري كان وجودها بارزاً مقارنة مع نسق التناوب الذي كان حضوره ضئيلاً اذ لم نجده إلا في حالة واحد في رسالة يصف فيها الصيد والمتصيد , في حين أنَّ نسق البديل الدلالي لم يكن له وجود في أدب الصابي .

الهوامش

[i] **ينظر : تحول الخطاب الروائي في العراق : مشتاق سالم عبدالرزاق , اطروحة دكتوراه , جامعة البصرة : 52**

[ii] المصطلح السردي , جيرالد برنس , تر : عابر غزندار , المجلس الاعلى للثقافة , القاهرة , ط1 , 2003م , : 19 .

[iii] من النص الى الفعل (ابحاث التأويل) , بول ريكور , تر : محمد براده , حسان بورقية , عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية , الاسكندرية , ط1 , 2001م : 9 .

[iv] ينظر : البناء الفني لرواية الحرب في العراق , عبدالله ابراهيم علاوي , دار الشؤون الثقافية العامة , بغداد , ط1, 1988م : 27 , من رسالة ماجستير بعنوان المظاهر السردية في شعر غطفان في الجاهلية وصدر الاسلام .

[v] السرد القصصي في الشعر الجاهلي :أ.د. حاكم حبيب عزر الكريطي , تموز للطباعة والنشر والتوزيع , دمشق , ط1 , 2011م : 32

[vi] في نظرية الرواية , بحث في تقنيات السرد , د . عبد الملك مرتاض , عالم المعرفة , المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب , الكويت , سلسلة كتب ثقافية , 1998 م : 180

[vii] المصطلح السردي , جيرالد برنس , مصدر سابق , ص 19 .

[viii] المظاهر السردية في شعر السيد الحميري , رسالة ماجستير , نعمان جرو , جامعة كربلاء , كلية التربية , 2018م : 22

[ix] اركان القصة , أ.م. فورستر , تر : كمال عباد، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ، القاهرة , 1960 م : 105 .

[x] المصدر السابق : 111 .

[xi] ينظر : دراسات في القصة العربية الحديثة اصولها اتجاهاتها اعلامها , د. محمد زغلول سلام , منشأة المعارف , الاسكندرية , ط1 : 12-13

[xii] ينظر : السرديات والتحليل السردي الشكل والدلالة , سعيد يقطين , المركز الثقافي العربي , المغرب , ط1 , 2012 م : 69 .

[xiii] المظاهر السردية في شعر الصاحب بن عباد , بشار لطيف جواد , رسالة ماجستير , جامعة كربلاء , كلية التربية , 2014 م : 34 .

[xiv] ينظر : المتخيل السردي : مقاربات نقدية في التناص الرؤى والدلالة : عبدالله ابراهيم , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط1 1990 , , ص108

[xv] نظرية البنائية في النقد الادبي / د. صلاح فضل , دار الشروق , القاهرة , ط1 , 1998 م : 278 .

[xvi] نظرية الرواية (دراسة لمناهج النقد الادبي في معالجة فن القصة) د. السيد ابراهيم , دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع , القاهرة , 1998 م : 51

[xvii] ينظر : المتخيل السردي مقاربات نقدية في التناص الرؤى والدلالة : عبدالله ابراهيم : 108- 109 .

[xviii] يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر : ابي منصور عبد الملك الثعالبي , شرح وتحقيق : د. مفيد محمد , دار الكتب العلمية , بيروت , ط1 , 1983 م : 2 /301 .

[xix] ينظر : درر النثر وغرر الشعر : 364 .

[xx] ديوان رسائل الصابي : جمع وتحقيق ودراسة احسان ذنون الثامري , مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي مركز دراسات المخطوطات الاسلامية , ط1, 2017 م : 1 /71-74 .

[xxi] نظرية الادب : رنيه وليك , اوستن وآرن , تر : د. عادل سلامة , دار المريخ للنشر , الرياض , 1992م : 307

[xxii] معجم مصطلحات نقد الرواية , د. لطيف زيتوني , دار النهار للنشر , لبنان , ط1 2002 م : 57 .

[xxiii] المختار من رسائل ابي اسحاق : الامير شكيب ارسلان , الدار التقدمية , لبنان , ط1 , نيسان 2010 م : 18 .

[xxiv] اين يممَ : اينما توجه .

[xxv] الشورى اية 23 .

[xxvi] الزور : الزائر او الزوار يكون للمفرد والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد .

[xxvii] الزيال / لغة في الزوال

[xxviii] المختار من رسائل ابي اسحاق : 34 .

[xxix] الشورى , اية 23 .

[xxx] يتيمة الدهر : مصدر سابق : 1 /324 .

[xxxi] طه , اية 18 .

[xxxii] ينظر : التناص القرآني في الشعر العباسي دراسة بلاغية نقدية , دكتور . اسامه شكري الجميل العدوي 3280 .

[xxxiii] المتخيل السردي , مصدر سابق : 109-110 .

[xxxiv] التجريب في القصة العراقية القصيرة – حقبة الستينات , حسين عيال عبد علي , رسالة ماجستير , جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد , ص216 – 217 مأخوذاً من نظرية المنهج الشكلي ص18 , البناء الفني للقصة القصيرة ص 20,

[xxxv] يتيمة الدهر , مصدر سابق : 2 / 289 – 290 .

[xxxvi] المصدر السابق : 2 / 301 – 302 .

[xxxvii] ينظر : الفضاء الروائي في ادب جبرا ابراهيم جبرا , د. ابراهيم جنداري , تموز للطباعة والنشر والتوزيع , دمشق , ط1 ,2013 م :89 – 90 .

[xxxviii] يتيمة الدهر : 2 / 298

[xxxix] يتيمة الدهر : مصدر سابق : 2 / 301 .

[xl] ديوان زهير بن ابي سلمى شرحه وقدم له أ . علي حسن فاعور , دار الكتب العلمية , بيروت لبنان , ط1 , 1988 م : 105 .